ديزيره سقال
المعلقة الثانية
(أو كِتاب الذاتَين)

ألطبعة الاولى
٢٠١٢

ديزيره سقال

المعلقة الثانية

(أو كِتاب الذاتَين)

إلى ديزيره...

استهلال:

الذات التي تكتشف ذاتها

نَقرأُ الشاعرَ، فَنَجِدُهُ يَنقسِمُ اثنين، ويَصيرُ ذاتَين في ذهولٍ: ذاتٍ تتأمَّلُ الأخرى، وتُحاولُ قراءَتَها، فَتَتَكاثَرُ التساؤلاتُ في نفسه. فَمِنْ أَيْنَ انبثَقَتْ هَذِهِ الذاتُ الأخرى، وَهيَ ذاتٌ لا تُشْبهُ إلاّ ذاتَ الشاعرِ، تَوْأمٌ لها، نابعةٌ مِنْها، تُحَاكيهِ ويُحاكِيها مِنْ داخِلِه، لِتُعَبِّرَ

عَنْهُ. إنَّها صُورَتُهُ المطابِقَة. لذلكَ نَرى الشاعرَ في حالٍ مِنَ الذهولِ وَالقَلَقِ، يُحاولُ الإجابَةَ عن أسئلةٍ كَثيرةٍ تَعْتَرِيهِ، يُحَاوِرُ ذَاتَهُ الأُخرى، وَيُسَائِلُها عَنْ وُجُودِها، وَكِيَانِها، وَمَصْدَرِها...

هَذِهِ الذاتُ كانَتْ مِنْهُ وَلَهُ، فَانْسَلَخَتْ عَنهُ، ثُمّ عادَتْ لِتَلْتَحِمَ بهِ. تُرى، هَلْ كانَ يُفتّشُ عَنْهَا أَوْ أَنّها، إنْ وُجِدَتْ، فَلِغايةٍ ما؟ لَدَى الشاعِرِ شعورٌ بالانقِسامِ، مِنْ جِهَةٍ، وبالالْتِحامِ بالذات الأُخرى، مِنْ جِهَةٍ ثانِيَة.

في هذا الإطارِ، تُطْرَحُ الكثيرُ مِنَ الفَرَضِيّاتِ: هَلْ إنّ الشعورَ بذاتٍ أُخْرَى تَسْكُنُنا، وَتُحاكِينا، وَتُعايشُنا، هُوَ، وَحْدَه، النقطةَ الأساسَ؟ هل إنّ الشعورَ بذاتِنا التَوْأَمِ المنسَلِخَةِ عَنّا هُوَ الأَهَمُّ؟ لا بُدَّ مِنَ القَوْلِ إنَّ الشاعرَ يُعاني حالةً مِنَ التَنقيبِ عَنِ الذاتِ الأُخرى التي صَادَفَهَا، بَلْ قَابَلَها طَوْعًا، وَمُنْذُ ذَلكَ هُوَ يُحَاوِلُ العيشَ مَعَهَا.

أَهِيَ حالَةٌ مِنَ العُصَابِ؟ نَقُولُ: لا، لأنَّها، وَإنْ كَانَتْ تَحْمِلُ في طَيّاتِها بَعْضَ مَلامِحِ النَرْجَسِيَّةِ والآنَوِيَّةِ، لا تُجسِّدُ، بحدّ ذاتِها، نوعًا محدّدًا مِنَ العُصاب.

هَلْ فيها حالةٌ تُشْبهُ الذِهَانَ، حَيْثُ نجدُ الانقساماتِ وَالتَشَعُّباتِ والغرابةَ والتَبَاعُدَ عَنِ الذاتِ، حالةً تحملُ ما تحملُ من هَذَيانِ الكِبارِ، وَالعَيشِ في القَصيدةِ، والاحْتِماءِ بها، وَعَدَمِ الاكتراثِ بزمانٍ أو بمكانٍ؟ إذا عالجنا هَذِهِ "الملحَمَةَ" الذاتِيَّةَ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ مَحْضِ عِلْمِيّة وجَدْنَا شَاعِرَها يَمُرُّ بحالةٍ مِن "انقسامِ

الذاتِ"، هِيَ، بالتَحديدِ، حالةٌ نَفْسِيّةٌ؛ وَلَكِنَّ التَشخيصَ يَكونُ مَبْتُوراً إنْ تَوَقَّفَ عِنْدَ هذا الحَدِّ، لأنَّ الشاعِرَ حَلَّقَ بنا نَحْوَ البَعيدِ، باكتِشافِهِ لِشخصٍ آخرَ يَنْبُعُ مِنْهُ في الأساسِ، وَلا يَتأثّرُ بالخارجِ، كَمَا في هَلْوَسَةِ الذِهانيّ، ثُمَّ يُحاكيهِ وَيَطْبَعُهُ وَيُرافقُهُ ويُلهِمُهُ، والأهَمُّ أنَّهُ يعودُ لِيَلْتَحِمَ مَعَهُ، وهذا مَا يَحْمِلُ المعانيَ كُلَّهَا؛ فَلَوْ كانَ غَريباً عَنْهُ أساسًا، يُمْلِي عَلَيْهِ أَشياءَ لا يُريدُها، وَيَسْلبهُ إرادتَهُ، لَكانَ أمرًا سَلبيًّا في هَذا السِياقِ. وَلَوْ كَانَ لا يُحاكِيهِ وَيحاوِرُهُ، بَلْ يَتَصَرَّفُ به كما شَاءَ، وَيَقودُهُ إلى

حَيثُ لا يُريدُ هُوَ، لافْتَرضْنَا أنَّ هذا انفِصامٌ في الشَخْصِيَّةِ. والشيءُ المميَّزُ أنَّ هاتَيْنِ الذاتَيْنِ قَدْ عادَتَا والْتَحَمَتا في داخِلِه، وَاعتَرَاهُمَا الذهولُ لِرؤيَةِ بَعْضِهِمَا تَرَافَقَتَا في بَيَاضِ طَرِيقٍ، ثُمَّ تَعانَقَتَا لِتَتكامَلا.

ولا يُمْكِنُ أنْ يُعانيَ هذِهِ المعاني وَالتَشابيهَ والأحَاسيسَ إلاّ فَنّانٌ مُرْهَفٌ كالشاعِرِ؛ فَالدخولُ الى مَتاهاتِ النَفْسِ، وَاكتشافُ كُنْهِها، كَمَا فَعَلَ هذا الشاعرُ، أَمْرٌ يَسْتَلْزِمُ شَجاعَةً، وَإحساسًا، وَعقلانيّةً، وحضورًا للتَفتُّحِ في دروبِ الحَياةِ وَاكتشافِهَا.

والسُؤالُ المطروحُ هُنا : هَلْ أضاعَ كلٌّ مِنّا جِزْءًا مِنْهُ في هذا العالِم، أَوْ ذاتاً أُخرى يُفتّشُ عَنْهَا، وَلَكنَّهُ لا يَجْرُؤُ على البَوْحِ بذلكَ؟ وإذا ما التقى بها، فَهَل يَجْرُؤُ أنْ يُظهِرَ لَهْفَتَهُ لها، وَيَغوصَ عَلَى أعماقِها، كَمَا فَعَلَ شاعرُنا ؟! لا أَظُنُّ، لأنَّ أغلَبَ الناسِ تُعُدُّ ذلكَ حالةَ جُنون، وَلَكِنَّ الفَرْقَ بَيْنَ العاقِلِ والمجنونِ شَعْرَةٌ تَتَجَلّى في حُسْنِ استعمالِ جُنُونِنَا لِنَكْبُر؛ فَفي هَذِهِ الحالِ أَغْنَى الانقسامُ بَيْنَ الذاتين شِعْرَ ديزيره سقال، وَأَعطاهُ مَدًى ومعنًى جَديدَيْن، وَهُوَ أمرٌ مَطلوبٌ مِنَ الكُلّ: فَعَلَيْنَا أَلاّ

نَخافَ مِنَ الغَوْصِ عَلَى أَعْماقِ ذَوَاتِنا لاكتشافِهَا، وَتَقَبُّلِ انقساماتِها، وَبالتالي ثَرْوَاتها، مَعَ العِلْمِ بأَنَّهَا تَبْقى ذَاتًا واحدةً مُلْتَحِمَةً، مُتَجانسةً، تُغْنِيها وَنُغْنيها، وهَذَا ما يَجعلُ منّا أشخاصًا مُتَفَرِّدينَ في الوُجود.

لَقَدْ حَقَّقَ ديزيره سَقّال في القَصيدةِ حُلْمَ كُلِّ إنسانٍ بإكتِشافِ الذاتِ الأخرى المنبَثِقَةِ مِنْهُ، وَالمشابِهَةِ لهُ.

فَنَحْنُ، عُلَمَاءَ النّفْسِ، حِينَ نَغوصُ على النفسِ البَشَرِيَّة، نَكْتَشِفُ فيها وُجوهًا لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وهذا

ما يَجْعَلُ الشخصَ على ما هُو عَلَيْهِ، يَحْتوي في نَفْسِهِ عِدَّةَ مُيُولٍ مُتَضاربةٍ بَيْنَ الشرِّ والخيرِ، والحبِّ والكُرْهِ، وَالفَرَحِ والاكتئابِ، وَالموتِ وَالحياةِ. فَبَعْدَ أَنْ كانَ الشاعِرُ، في "مَلْحَمَتِهِ" الأُولى يَكْتُبُ عَنِ الموتِ، وَيُوَاجِهُهُ بقصيدةِ ذاتِهِ، نَرَاهُ اليومَ، في مُعَلَّقَتِهِ الثانِيَةِ، يَجِدُ ذَاتَهُ الأُخرى، وَيَلْهَفُ لها، فَتفجَّرُ فيه عطاءاتٍ وَابتكَاراتٍ جَديدةً.

هكذَا نَقْرَأُ شَخْصَ ديزيره سَقّال الشخصِ الماهرِ في فَنِّ التَحْويلِ؛ فَهُوَ الفَنّانُ المبدِعُ الذي يَعْرِفُ كَيْفَ

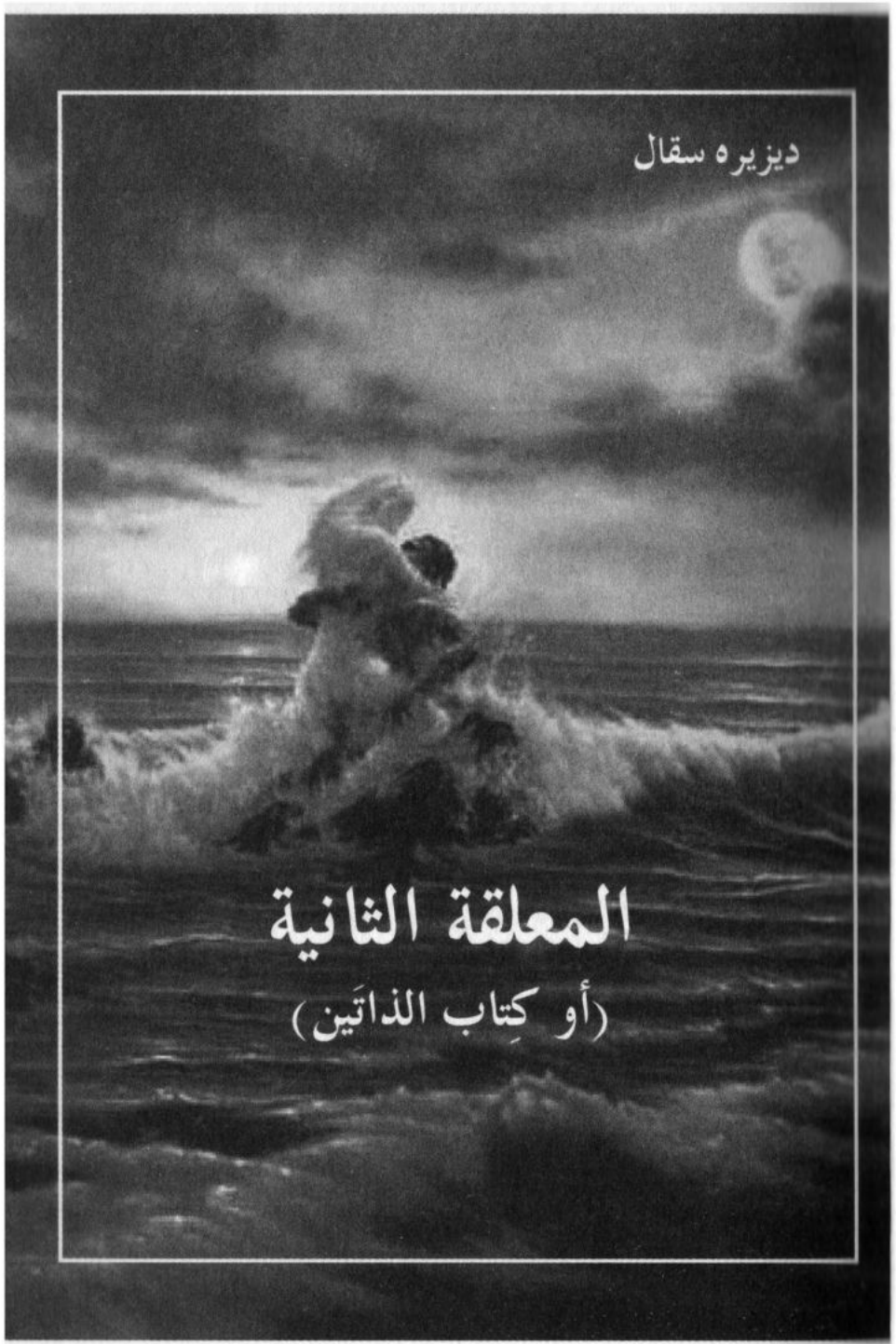

يُحَوِّلُ الأشياءَ وَالأحاسيسَ، بَلْ حَياتَه كلَّها إلى إبداعٍ، وإبداعٍ، وإبداعٍ... وَيُجَسِّدُهُ في قصيدةٍ تُخَلِّدُهُ، لِتَصيرَ ذَاتَهُ وَحْدَهَا هِيَ الأَبْجَدِيَّة...

د. ديزيره القزي

- ١ -

أَمشي إِلى ذَاتي التي انْشَعَبَتْ

لأَقْرَأَني،

وأَدْخلُ في مَتاهَاتي

كَأَنَّ علامَةَ الطُرُقَاتِ غَابَتْ

وَانفَتَحْتُ علَى القَرارِ،

لكِنَّني مُتَمَسِّكٌ بالوَحْيِ

يَعصِمُني،

وَيَبرُق كالشَرارِ،

ويُسَدِّدُ الخَطَوَاتِ نحوَ قَرارتي

لأَرى إِليها ما تَقَسَّمَ فيَّ

من ذاتٍ وَذاتٍ:
كُنتُ ذاتَينِ استَقَرّا
في كيانٍ واحدٍ،
أَوْ
نُطفَةً لَجَّتْ بها الأَيّامُ
فانشعَبَتْ
وصارَتْ نُطفَتَينِ
وتَوأَمَينِ
بلا قرارٍ...
وتَفَرَّعَتْ بِهِما الطَريقُ
فضاعَ كلٌّ منهُما في آخَرٍ،

لكنّما انسَلَخا معًا
وكأَنَّما كانا معًا
متباعِدَينِ على انتظارِ...

ليسَت خَطيئَتَنا...!
ولكنَّ الضَياعَ يُؤَسِّسُ الأحلامَ —
لم نحلَمْ
ولكنّا التَقَينا
حينَ ضِعْنا في مَتاهٍ دائريٍّ
وَانكَشَفْنا، ذاهِلَيْنِ، على المدارِ:
ذاتٌ على ذاتٍ،

ووِجدانانِ من ذَكَرٍ وَأُنثى
يمشِيانِ...
أَخَفَّ من وِطْءِ السديمِ على السديمِ
كأَنّما عَرَفا مَعًا
أَنَّ الطريقَ تقاطَعَتْ
في الأبيضِ الممتدِّ
ثَلجًا ناصعًا،
وتلاقتِ الخَطَواتُ
وانطَمَسَتْ مَتاهاتُ المدارِ...

- ٢ -

لا شَيءَ يَذهُلُنا.
نَهيمُ مَعًا بِذَاتَيْنا
وَذاتانا امتلاءٌ أبيَضٌ.
أنا ما يكونُ
وما يكونُ
وما يكونُ...
أنا فيكِ صاريَةٌ
يزَيِّنُ رَأْسَها العالي الجُنونُ.
لا شيءَ يَذهُلُنا...
فنحنُ قصيدةٌ

مَسَحَتْ تَقاسيمَ المكانِ
وَغَيَّبَتْ وجهَ الزمانِ
فلا زمانَ
ولا مكانَ
ولا غدٌ أو حاضرٌ
في لحظةِ الأبديَّةِ البيضاءِ هذي —
كلُّ ذاتٍ
أوغَلَتْ في ذاتِها الأُخرى
وَأُقفِلَتِ الجفونُ
لتَهيمَ في أَلَقِ الغيابِ المستمرِّ،
فلا تعودُ إلى انكساراتِ الحضورِ

ولا حَواشيهِ،
وتَكتُبُها المتونُ...
لا شيءَ
في هذا المدى المركومِ إلاّنا،
وكلُّ الخارجِ الممتدِّ وَهمٌ، بَعْدُ،
نحنُ الواقعُ الأبَديُّ
في هذا الوجودِ المستحيلِ
وذاتُنا الفردوسُ والملَكوتُ
حينَ تجَمَّعَتْ
ذاتَينِ في ذاتٍ
وَأَرَّخَتِ الحضورَ

فعادَنا في الثلجِ أبيضَ
وَاغْتَنَيْنا بالغيابِ
لنفتحَ الكلماتِ في شِعرٍ جديدٍ:
لا لِنَشْرَحَ ما يحيطُ بنا،
ولكنْ لاكْتِناهِ السرِّ
في أبديَّةٍ بيضاءَ تَحضُرُنا
ونَرحلُ في مداها
خاطرًا أغنى من الأحلامِ...
كُنّا كوكبَينِ تَوازَنا في كَوكَبٍ
وَمَمَرَّ روحَينِ استقَرّا في القصيدةِ
حينَ خطَّتْها السنونُ...

وَلْيَكُنْ أَنّا إذا شِئْنا
كَتَبْنا الكونَ حرفًا واحدًا
وارتاحَ في دمِنا مدى التكوينِ
واختَطَّتْ مَشيئتُنا المكانَ
يُحيطُهُ زمَنٌ حَنونُ —
سيكونُ مِنّا ما يكونُ...

- ٣ -

بَيضاءُ هذي الأرضُ

في أعماقِ ذاتَيْنا،

ولا شيءٌ سوى ألَقٍ

يُحيطُ بسِمْتِها.

مِنّا تَناسَلَتِ الخَيالاتُ التي

حَمَلَتْ صفاءَ السرِّ...

مِنّا نَحْنُ سافَرَتِ المعَلَّقَةُ الجديدةُ في المدى

وحَفَرْتُ منكِ أسمي،

وَرِثْتِ الحُلْمَ منّي...

عندَها انبَثَقَ الوجودُ

وتألَّقَتْ دُنْيا على دُنْيا،

وفاضَتْ ذاتُنا

من وَحدةِ الذاتَيْنِ

ألحانًا من الفِردوسِ،

وانتشرَ النشيدُ...

صار المكانُ خطيئةً... كالسجْنِ.

صِرْنا وحدَنا في اللامكانِ،

ولا زَمانَ يُحيطُنا —

لا شيءَ فينا غَيرُنا:

ذاتانِ في ذاتٍ

وأَرضُ أخْصَبَتْ في الشِعْرِ

فانبثَقَتْ قصيدَتُها

تشِعُّ، وأُفْقُها أبَدٌ بعيدُ...

مَنْ نحنُ؟

كيفَ التَمَّتِ الذاتانِ في ذاتٍ

وجاءتْ

من مُخَيَّلَةِ الغرابةِ قصَّةٌ

فَتَحَتْ قصيدَتَنا على السرِّ الغريبِ

وصارَ كلَّ حُروفِها الألَقُ الجديدُ؟

ذاتي وذاتُكِ توأَمانِ،

وخارجَ الذاتَينِ نَفْيٌ:

لا كِتابةَ فيهِ

أو شِعْرٌ،

ولا أبَدٌ خرافيٌّ

يشقُّ زمانَنا المعجونَ بالصَلصالِ،

لا آتٍ،

ولا ماضٍ

ولا زمَنٌ مَديدُ —

كلُّ المدى متَجَمِّعٌ

في تَينِكَ الذاتَينِ،

كلُّ حضورِ هذا الكونِ،

كلُّ الكونِ والتَكوينِ...

والخَلْقُ الإلَهيُّ الأبيدُ

متَكَوِّمٌ في وحدةٍ
فوقَ الحضورِ
وخَلْفَ أبعادِ المعاني.
ليسَ فينا
غيرُ وَحيٍ نازلٍ من فوْقُ
ينثرُهُ على الدُنيا القَصيدُ.

- ٤ -

منْذا أكونُ، إذًا،
على غَبَشِ الزمانِ
وفي المدى
يا ذاتيَ الأُخرى؟
وكيفَ يسنُّ، بَعْدُ، نِظامَهُ
هذا النِظامُ؟
يَنحلُّ فيَّ ضَميرُكِ الآتي من المجهولِ.
تنكَسرُ المسافةُ والغيابُ،
يذوبُ فيكِ الحاضرُ الممتدُّ
والكونُ المجمَّعُ

والأنامُ...
وأنا وأنتِ على امتدادِ اللازَمانِ
عبارةٌ
ضَمَّتْ بصَمْتٍ واحدٍ
كلَّ الوجودِ...
أنا وأنتِ
قصيدةٌ زَهريَّةٌ
في مهرجانِ الغبْطةِ البيضاءِ
تختصرُ الزمانَ،
وبَعدَها لا شيءَ
غيرُ النارِ تخرجُ من قرارتِها

وتنسجُ من كِيانِ العُمْرِ
أعمارًا لنا...
هُوَذا الظلامُ
نورٌ على نورٍ
وخَلْقٌ مستحيلٌ عَمَّدَ الدنيا —
ودُنيانا شعورٌ وانتِظامُ
في قِمّةِ الفوضى،
ومُنعَرَجاتُ ذاتَينا تَواريخٌ
تُلَخِّصُ قصَّةَ الأزْمانِ.
لا زَمَنٌ سِوانا.
ليسَ في الدنيا سِوانا

والتواريخُ التي عَبَرَتْ
هيَ الشرَرُ الذي فاضَتْ بهِ الذاتانِ
قَبلَ تَوَحُّدِ الأشياءِ.
لا شيءٌ سِوانا
في حصارِ المستحيلِ
وفي الزمانِ يحدُّهُ موتٌ زُؤامُ.
لا شيءَ يَفْصِلُنا
وفي وِجدانِنا المفتوحِ للأنوارِ
يزهو الحاضرُ الممتدُّ،
والشِعْرُ المحَرَّرُ،
والكلامُ...

- ٥ -

يا ذاتيَ الأُخرى،
تُلَوِّنُنا الحروفُ
ويسقطُ النسيانُ في صوتِ القصيدةِ.
كُلَّما رَدَّدْتُ وَحيًا
أو خطَطْتُ مشاعري في الحَرْفِ
كُنتِ أمامَ قلبي –
كيفَ جئتِ إِلَيَّ
من أعماقيَ الحُبْلى
وكُنتِ بعيدةً كالطَيْفِ
في تَيْهِ المكانِ؟

كيفَ ارتَقَيْتُ إلَيكِ

حينَ تلاشَتِ الأشياءُ من حَولي

وهاجَرَني زَماني؟

أخْصَبْتُ حَقْلَكِ بالقصيدةِ

والتَفَتُّ إلَيَّ فيكِ

فَكُنْتُني،

ورأَيْتُ فيكِ قرارَتي،

وَرَأَيْتُني

في قلبِكِ المعجونِ بالأَلَقِ الشفيفِ

أُحاصرُ الدُنيا بأحلامي

وَأَرْحَلُ في الأَماني...

وَرَأَيْتُ لا دُنيا سِواكِ

ولا وجودَ...

ولا مكانَ...

رَأَيْتُني

في يَقْظَةِ السِمْتِ الأَثيرِيِّ المدَثَّرِ بالبَياضِ

أُحَرِّرُ الأفلاكَ فيكِ

وَأَستَفيقُ...

كأنّني ما غِبْتُ عنكِ

ولا شَرَدْتُ بسِحْرِ عَينَيكِ.

أنْتَظَرْتُ ولادَتي،

وَوِلادَتي كانتْ ولادَتَكِ العظيمةَ.

كُنتُ فيكِ ضميرَكِ الثاني
وكُنتِ ضَميريَ الآتي منَ الهَذَيانِ.
كُنتِ الدربَ تُغْدِقني إليكِ
لأُعلِنَ العِصيانَ فيَّ
وَأَدْفُقَ الأحلامَ في الدُنيا
وَأَجْهَلَ ما عَرَاني.
حِلْمَيْنِ كُنّا في ضَميرِ الغيبِ،
شِعْرًا في مساحاتِ الأمانِ...
لا شَيءَ فيكِ سِوايَ:
لا أَحَدٌ
ولا زَمَنٌ

ولا نَبْضٌ بغَيرِ دَمي
وَأَنْتِ دَمي ونَبْضي
وَائْتِلاقاتُ القصيدةِ وَهْيَ تقتحِمُ الأَثيرَ...
تَألَّقي...
فالكَوْنُ غابَ
وغابَتِ الدُنيا —
أنا الدُنيا.
أنا الآتي منَ الهَذَيانِ
أحملُ رايَتي في قلبكِ الخَفّاقِ
مؤْتَلِقًا يُخَلِّدُ وَجهَكِ الورْدِيَّ
فوقَ مدى الزمانِ.

- ٦ -

وَجهٌ على وَجْهي،
ونَبْضٌ فوقَ نَبْضي،
والكِيانانِ انبثاقٌ واحدٌ.
لا شَيءَ في هذا الصَفاءِ المستحيلِ
سِوَى مدَى أبَديّةٍ بَيْضاءَ...
لا مُتَألّقًا في غَورِ أغواري سِواكِ،
وأنتِ، يا ذاتي، وُجُودي
وأنا خُلودٌ في ضَميرِ الشِعْرِ
أَنْشُرٌ وَحْيَهُ عَبْرَ الحدودِ.
لا شَيْءَ يَسْتُرُني سِواكِ

وما يَقيني دَمْغَةَ الزمنِ الثقيلِ
سِوَى السَنا
بصفائِكِ الأبَدِيِّ،
يا ذاتي التي عادَتْ من التَيَهَانِ
والتَمَّتْ بقلبي
فاعتَصَمْتُ بدِفْقِها...
وتَحَرَّرَتْ ذاتي من السِجْنِ الطَويلِ
وأطْلَقَتْني من قُيودي.
لا شَيْءَ يَستُرُني سِواكِ
وكُلُّ ما في الكونِ يَصْدُرُ مِنْ مَدًى
يَمْتَدُّ فيَّ إلَيَّ...

لَكِنْ حِينَ أَوْغَلْتِ انشَطَرْتُ

وصِرْتُ من وَجْهَينِ:

وجْهٍ أَبيضٍ كالثلْجِ

لوَّنَهُ نشيدي

واخْتَصَرْتُ بهِ الحضورَ،

وَوَجهيَ الثاني عَبيرٌ

جاءَ من أَلَقِ الضَياعِ

فغَلَّ فيَّ،

وصارَ مُعْتَصَمي الذي حَرَّرْتُ فيهِ قَصيدَتي

وقَصيدَتي انبثَقَتْ

مِنَ الوجَعِ الذي ذَوَبْتُ فيهِ غِبطَتي.

كُلّي عَلَيْكِ مُجَمَّعٌ،

يا ذاتيَ الأُخرى،

وكُلّي أَبيضٌ كالثلْجِ

حينَ تلاقَتِ الذاتانِ فيهِ...

أنا المكانُ،

أنا الزمانُ،

أنا اهتِزازاتُ الوجودِ،

أنا حُدودي،

وأنا الخلودُ

متى خرَجْتُ إلى القصيدَةِ مِنْ دِمايَ،

أنا خلودي...

- ٧ -

عَيناكِ في عَيْنَيَّ
والزَمَنُ المكَسَّرُ حَوْلَنا
أَلَقٌ...
وفي دَمِكِ الذي يُغوي عَذاباتي دَمي...
فلِمَنْ أَبوحُ بصَمتيَ المرتاحِ فيَّ؟
كأنَّني أَهوى دروبَ المستحيلِ
وكأنّني في معْبَرِ العُمْرِ الثقيلِ
أشتاقُ ذاتي
حينَ تُغويني بكائِنِكِ اللَجوجِ،
وأَستَقِرُّ عليكِ مُنْصَدِعًا،

أَطيرُ إلى أَثيرِ فؤادِكِ المفتوحِ لي
وفؤادُكِ المفتوحُ
أغنى من سَنَا الفِردوسِ
وَهْوَ يَغُلُّ في العُمْرِ الجَميلِ...
أَلَقُ...
وفي دَمِكِ الذي يُغوي عذاباتي دمي...
ودَمي لُهاثُ الشوقِ في وِجْدانِكِ العاري،
دمي في ليلِ عينيكِ ارتعاشاتُ المدى،
ودمي تَراتيلُ الملائِكِ وَهْيَ تَصْدَحُ
عَبْرَ روحِكِ، يا مَثيلي...
أَلَقٌ

يمرُّ بذاتيَ البيضاءِ،

يَقسِمُني

فأخرجُ من صفاءِ الوحدةِ الزَهْرِيِّ

أَزرَعُني بعينيكِ اشتهاءً لازَوَرْدِيًّا...

وَليسَ سِوايَ في فردوسِكِ النائي عن النُقْصانِ.

ليسَ سوايَ فيكِ متى خَلَوْتِ

وطارَ بي ألَقُ القصيدةِ.

ليسَ يكتُبُني سِواكِ

ويقرأُ الفوضى

وينظِمُها حروفًا

أو يخطُّ بأحرف الألَقِ الجميلِ

فردوسَ أعماقي.

هناكَ أراكِ

أصفى من بريقِ الكوثرِ الوَهّاجِ،

أنظِمُ فيكِ وَحْيَ الشِعْرِ

من نارٍ

ومِن زَهْوٍ أثيريٍّ...

أراكِ هناكَ، يا ذاتي،

على عُمْقِ الحبورِ المستطيلِ

تتكوَّمُ الدينا على عينيكِ،

يَختصرُ الوجودَ جميعَهُ حَرْفٌ

تَضَوَّعَ من فؤادِكِ عابِقًا،

يا ذاتيَ الأخرى،
ويَغتسِلُ اشتِعالُ الخَلْقِ
في أعماقِ عينيكِ.
أنتَظَرْتُكِ قَبْلَ خَلْقي
وانتظَرْتُ حضوريَ المذهولِ فيكِ،
وَكُنْتِ، إذْ كُنّا، مَثيلي!
ثمَّ اكتَشَف حضورَكِ الوَهّاجِ فيَّ
فعَادَني نَسَمُ الطفولَةِ
واسْتَقَلَّتْ ذاتيَ الأخرى
عن الزمنِ الهزيلِ.
كُنّا معًا حُلْمَيْنِ

يَمسَحُ قَلبُنا الدنيَا
فنغرَقُ فوقَ هذا الكونِ
في اللاكَوْنِ
حيثُ تَغيبُ كلُّ مرارةٍ
ونَغيبُ في ثَلجٍ يَفِرُّ منَ الذهولِ.
كُنّا معًا حلمَينِ
أبعدَ من حضورِ الخَلْقِ
أوْ
ألَقًا يَطيرُ على مساحاتِ الخَيالِ
لِيَشْهُرَ العِصْيَانَ في وَجْهِ القبولِ.

- ٨ -

مُتَمَدِّدًا في حُلْميَ المذهولِ

تَحْضُرُني حَياتي:

كُنْتُ طفلاً ماردًا

شَطَرَ الزمانَ بحلْمِهِ

وتَبارَكَتْ عَيناهُ من عَينَيكِ

يا ذاتي،

فهَل يَتَصارَعُ الطَرَفان فيَّ:

ألآنَ والماضي،

ألحضورُ وما يَغيبُ؟

هل يَستَفيقُ مداي عَبرَ مداي؟

هل تتقاطَعُ الطرُقاتُ عَبْرَ دمي

ويسألُني القرارُ

وأنْتِ في دميَ المُجيبُ،

يا ذاتيَ الأُخرى...؟

كأَنّي في الطفولةِ كُنْتُ مُنْتَظِرًا

مُعَادَلَتي التي حَقَّقْتُها

حينَ انعَجَنْتُ أنا بذاتِكِ

وانفصَلْتِ عنِ البعادِ إليَّ؟

صِرْتُ مراهقًا

شَجَّ الوجودَ بحلْمِهِ الوَهّاجِ

وَهْوَ يُسابقُ الدنيا إليكِ

ولا رَقيبُ...!

حتّى مراهَقَتي

أَحَسَّتْ بارتعاشِ الغَيْبِ فيها

وَهْوَ يَبحَثُ عنْكِ

في أعماقِ وِجْداني

ووِجْداني بُزوغٌ دائِريٌّ

لا يُعطِّلُهُ مَغيبُ...

حتّى مُراهَقَتي رَأَتْكِ

كما الرذاذُ يُلامسُ الأشياءَ.

لم تَعرفْ مَقامَكِ.

لم يمُرَّ بها سِواها

حينَ حَطَّمْتِ النهايةَ

في خلودِ الحلْمِ.

كُنتُ مراهقًا

لكنّني راقَبْتُ خَلْقَ الأُمنياتِ

كأنّما عَيْناكِ أُمْنيَتي...

ولمْ أعرفْ سِواكِ بعُمْقِ أحلامي،

ولكنّي بقَيْتُ مُشَرَّدًا عنكِ.

أنتَظَرْتُكِ. صِحْتُ...

ساءَلْتُ المكانَ

وليسَ ثَمَّ بهِ مُجيبُ...

لا شَيءَ يحمِلُني إليكِ.

ظَلَلْتِ خارجَ كائني
عَمياءَ عَنّي
في مكانٍ مقفرٍ،
وظَلَلْتُ أسمَعُ خَطْوَكِ السِرِّيَّ
يسألُني...
ولكنْ... لا أُجيبُ.
فَتَّشْتُ عَنْكِ سُدًى
وكُنْتِ بداخلي.
فَتَّشْتُ بينَ حرارةِ النِيرانِ فيَّ،
وبينَ أحلامِ الزمانِ...
ولم أجدْكِ...

وظلَّ قلبي ضائعًا عنكِ.
أنتظَرْتُ...
ورُحْتُ أمشي في شَبابِ العُمْرِ
مُكْتَظًّا بحُلْمي
والحياةُ تدورُ بي —
زَمَنٌ بلا زَمَنٍ،
وَسَيْرٌ في مُراوَحَةٍ...
وأنتِ بَعيدةٌ عنّي.
ولكِنْ كُنتِ فيَّ قويَّةً... حتّى اليقينِ،
وكُنْتِ جرحًا لا يَطيبُ.
وَعَرَفْتُ فيكِ قَرينَةً

وَقَرينَتي قَبَسٌ منَ الأعلى.
ولمْ أعثُرْ عليكِ...

مضى الزمانُ
وطارَ بي في كَوْنِهِ... حتّى الضَياعِ،
وَخَطَّ جَبهَتِيَ المشيبُ...
ثمَّ انكَشَفِ لِناظِرَيَّ
عَميقةً كالسِرِّ
مِنْ لونِ الضياءِ
وَطَعْمَةِ الفرَحِ الذي يُحْيِي
وَشَرَّعَكِ العَبيرُ المستَجيبُ.

- ٩ -

ضاحٍ كَما الأَلَقُ المفَتَّحُ
أرتَدي فيكِ الوجودَ
ولا وجودَ سِوايَ،
لا شَيءٌ سِواكِ على مَدايَ —
أنا المدى...
وأنا الوجودُ متى اخْتَزَنْتُ السرَّ
أُولَدُ فيكِ مِنْ طَوَفانِ هذا الشِعْرِ،
أُولَدُ مِلْءَ عَينَيْكِ انتِظارًا
صارَ مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ.
تولَدينَ بكائني

أَقْوى مِنَ التكوينِ في رَحِمِ السَماءِ
وَيُطِلُّ من عَيْنَيْكِ لوْنُ الشِعْرِ،
يَنبَثِقُ الوجودُ على فَضائي...
أنا جِلْدُكِ المَمْلوءُ بالرَعَشاتِ
تَسْكُنُني وأَسْكُنُها،
وَنَصْنَعُ مِنْ رَفِيفِ الوُحْدَةِ الأبَدِيَّةِ الأشْياءَ
والزَمَنَ المصَفّى
والمكانَ المستَحيلَ.
نَصيرُ مُنطَلَقًا جديدًا في العَراءِ.
تَتَساكَنُ الدُنيا بِنا
وَنَرُدُّها أرْضًا منَ الأَلَقِ الطَويلِ

وَفِتْنَةً كانَتْ عَصِيَّهْ.
هِيَ ذي القَصيدَةُ تَستَسيغُ دَمي مِدادًا
في المدى المفتوحِ فِيَّ
وَأَنْتِ أَنْتِ الأبجَدِيَّهْ.

١٩ - ٢٣/ ٣/ ٢٠١٢

نَصيرُ مُنطَلَقاً جديداً في العَراءِ.

تَتَساكَنُ الدُنيا بِنا

وَنَرُدُّها أرْضًا منَ الأَلَقِ الطَويلِ

وَفِتْنَةً كانَتْ عَصِيَّهْ.

هِيَ ذي القَصيدَةُ تَستَسيغُ دَمي مِداداً

في المدى المفتوحِ فِيَّ

وَأَنْتِ أَنْتِ الأبجَدِيَّهْ.